السيرة النجدية في الأدب العربي

د. يحيى عبد الرؤوف جبر

الاشتقاق اللغوي :

ينصرف الأصل اللغوي (ن ج د) لدلالة أصلية تقع على معنى الارتفاع الماديَ، ومنه لهذه الدلالة النجد بمعنى الهضبة، وما ارتفع من الأرض. والنجدان من قوله تعالى ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ (١)، حيث تفسر الكلمة بالثديين، وهما إلى ارتفاع وبروز عن سواء البدن، وبالطريقين المرتفعين الواضحين، وهما طريقا الخير والشر.

ومن شواهد النجد بمعنى المرتفع من الأرض استخدامهم الكلمة لمعنى نقيض الغور، وهو المنخفض من الأرض، قال الطرماح بن حكيم الطائي:

. . . بما لايُرى منها بغور ولانجد(٢)

وأنجـــد القوم، إذا أتوا نجدًا أو سـاروا في اتجاهـه، قال مـالك بن نويرة في هذا المعنى:

يُهلِّون عـُمّارًا إذا مـا تغــوروا ولا قوا قريشًا خبروها فأنجــدوا(٣)

وَمَثَـلُه في أقوالهم مَثَلُ أعرق وأتهم وشاءم ويمّن إذا أتى العراق وتهامـة والشام واليمن.

والنجــد أو نجد كذا، أسمـاء تطلق على مواضع بعينها، كنجد الشرى ونجد اليمن ونجد كبكب وغيرها. وما يزال سكان المناطق الجنوبية الغربية من السعودية (تنومة والعوصـاء وقراهمـا) يطلقون على الهضبة الممتدة إلى الشرق من بلادهم اسم نجد، وذلك لارتفاعها، وهذا هو الأصل في دلالة الكلمة، ثم خصصت لمواقع معينة أعلامًا عليها، غير أن أشهرها على الإطلاق، والذي يفهم دون غيره عند تحرير الكلمة هو إقليم نجد الذي يتوسط شبه جزيرة العرب، جزءًا من المملكة العربية السعودية.

ومــن المُلبِس في أقوالهم مـايروى من «أن عبدالملك بن مروان أخـرج جاريته في السوق ونادى منادٍ بدمشق الشام أن من قـال بيتًا ثانيًا من الشعـر لهذا البيت فـهذه الجارية له حلال، وهو قوله شعرا:

بكى كــل ذي شجـوٍ تَهـام وشَجْوُه بنجـــد فأنَى يلتــقي الشَّجَوان

فقـال في ذلك العربُ أقوالاً كثيرة هم والعلماء، فلم يرتضها عبدالملك حتى قال جرير:

يغــور الذي بنــجد أو الـــذي (م) بغــور تَهـامـاتِ فيلتقيــان

فقال عبدالملك: خذ الجارية، لابارك الله لك فيها، والله إن البيت ليقع على البيت كما يقع الحـافر على الحافر، فالمراد: كل مكان عالٍ يسمى نجدًا، وكل مكان هابط يسمى غورًا وتهامة»(٤).

وفـي هذه الحكاية مايشير إلى أن الذين قالوا ولم يصيبوا مـا يوافق رأي عبد الملك كانوا يعتقدون أن المقصود هو إقليما نجد وتهامة في وسط الجزيرة وغربها، والمسافة

بينهما كبيرة، وليس المكانين المرتفع والمنخفض اللذين قد يكونان قريبًا أحدهما من الآخر.

وتقع دلالة «نجد» أيضًا على الارتفاع المعنوي، ومن ذلك النجدة بمعنى المروءة والشهامة والقصد إلى المعالي والأمور السامية. وفي المثل «هو طلاّع انجد»(٥) إذا كان ساميًا لمعالي الأمور ويحسن ضبطها ويحكم الصِّرفة بها. ومن ذلك في أُشعارهم قول دُرِيد بن الصِّمَّة يرثي أخاه:

كميشُ الإزارِ خارج نصفُ ساقِه   صَبورٌ على العَزَّاء طَلاعُ أنجُدِ(٦)

ولعل هذا الاستخدام هو الذي قاد إلى تغير الدلالة لمعنى الشهامة والمروءة، وتتضح العلاقة بين الدلالتين بتقليب المعاني التي يتضمنها قول أبي القاسم الشابي في رائيته المشهورة:

ومنْ لا يُحِبُّ صعودَ الجبال   يعشْ أبَدَ الدهرِ بينَ الحُفَرْ

حيث قرن صعود الجبال بمعنى الشهامة والعزة، والعيش في المنخفضات بالذل والمهانة... وقد سبق الجاهليون إلى مقارنة من هذا القبيل حين كان أحدهم يفاخر بنزول الأماكن العالية المشرفة، التي تستقطب الأضياف، وكانوا يذمون «حلاّل التلاع مخافة» أن ترى الأضياف داره أو ناره، والتلاع هي الأماكن المنخفضة بجانب الأودية.

وعكس النجد الغور، وبه سميت تهامة، وكل منخفض من الأرض وغيرها - كالماء - فهو غور. قال تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ (٧). أي غائرًا، وعكسه المَعين. وغور الأردن من ذلك، لانخفاضه، وهو امتداد طبيعي لتهامة التي تمتد على الساحل الشرقي من البحر الأحمر، وقد تشكلاً معًا في الزمن الجيولوجي الثالث(٨) من جراء الخسف الذي اعترى الأرض آنذاك، ونجم عنه ما يعرف بالأخدود الأفريقي العظيم أو حفرة الانهدام، وامتدت ما بين منابع النيل في وسط أفريقية إلى البحر الأسود في أواسط آسية، مرورًا بالبحر الأحمر وغور الأردن والبقاع في لبنان وسورية.

أسماء نجد :

عُرفت نجد في التراث العربي بعدد من الأسماء غير نجد، ومن ذلك:

أ - الجَلْس، ودون أل :

وإنما سميت به لأنها كأنها جالسة في مكانها من وسط الجزيرة، فهي ترتفع من فوقه كما يرتفع الجالس المتربع فوق مكانه، قال الأحوص :

وإني إليها حيث طارت بها النوى   من الغور أو جَلْسِ البلاد لنازعُ(٩)

وقال العَرجي في المتجه صوبها :

شِمالَ من غاربةٍ مُفرعا   وعن يمين الجالس المنْجد(١٠)

أيِ الآتي نجدًا، وفي هذه الصيغة ما يؤكد دلالة الكلمة (جلس) على نجد، الإقليم الذي يتربع في وسط جزيرة العرب.

ب - سنام الأرض :

وهذه التسمية من باب المجاز لعلاقة المشابهة، فكأن الأرض ناقة ونجد سنامها. ولم أقف على هذه التسمية إلا في بيت واحد هو قول بشر بن أبي خازم:

كفينا من تغيَّبَ، واستبحنا   سنامَ الأرضِ إذ قَحِطَ القِطارُ(١١)

يريد نجدًا بعينها، والمعنى إننا قمنا باللازم دون حاجة إلى من تغيب منا، وأغرنا على نجد بعد أن اشتدت وطأة القحط، وأرسلنا سائمتنا ترعى حيث شاءت.

جـ- العالية أو عالية نجد :

وقد سميت به لعلوها على ما حولها من أنحاء الجزيرة العربية، وإشرافها عليه، وإياها أراد الشاعر بقوله:

إذا هب عُلويُّ الرياح وجدتَني   يَهَشُّ لعلوي الرياح فؤاديا
وإن هبت الريح الصبا هيجت لنا   عقابيلَ حزنٍ لايجدْنَ مُداويا(١٢)

إذ المقصود بعلوي الرياح ما هب منها من قِبَلِ العالية . . . نجد. ومثله قول المجنون الذي سيأتي بعد قليل.

د - والشرف هو كبد نجد :

وكـانت منازلَ الملوك من بني آكل المرار «مملكة كندة قبيلة امرئ القيس الشاعر الجاهلي المشهور» وفيه اليوم حمى ضرية . . . وفي الشرف الرَّبْذَة ، وهي الحمى الأيمن ، والشُّريف إلى جنبه يفرق بين الشرف والشريف واد يقال له التسرير(١٣) .

المناخ والبيئة الطبيعية :

يسود منطقة نجد مناخ قاري ، حار صيفاً بارد شتاء ، شديد الحرارة نهاراً ، شديد البرودة ليلاً . وقد نقف على هذه الحقائق في أشعارهم ، قال أحد الأعراب :

ألا أيها البرقُ الذي بات يرتقي   ذُرى الظلماء ذكَّرتني نجْدا
ألم ترَ أن الليل يقصرُ طوله   بنجد ، وتزدادُ النِّطافُ به بَرْدا(١٤)

والنطاف جمع نُطفة وهي القليل من الماء يتجمع في الأقلات وتجاويف الصخور . أما في الصيف فإن الحر يشتد فيه إلى درجة عالية ، وما أرى تخليدهم ريح الصبا في أشعارهم إلا صدى لما يلاقونه من حمّارة القيظ ولفح الهواجر ، وخير ما يوضح ذلك تلك الأبيات التي استطارت في الآفاق وجاوزت حدود نجد إلى الأصقاع المختلفة - التي تغنى بها ابن الدُّمَيْنَة قبل أكثر من ألف عام حيث قال:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد   لقد زادني مسراك وجداً على وجد(١٥)

. . . إلى آخر القصيدة .

ولما كانت البلاد هي البلاد ، والمناخ هو المناخ ، فقد أطربت هذه القصيدة كل مستمع ، حيث جرت على لسان المطرب الخليجي عوض دوخي نغماً شجيًا ولحناً عميق الأثر في النفس .

ولعل في الخبر الذي أورده أبو علي القالي في أماليه(١٦) ما يؤكد ما قدمنا ، حيث روى أن رجلاً من أهل تهامة تزوج امرأة من أهل نجد ، فأخرجها إلى تهامة ، فلما أصابها حرُّها قالت: ما فعلت ريح كانت تأتينا ونحن بنجد يقال لها الصبا؟ ، قال: يحبسها عنك هذان الجبلان (يعني جبلي نَعمان) فأنشدت:

أيا جبلي نَعمان بالله خلَيا   نسيمَ الصبا يعبرْ إلي نسيمها
اجدْ بردَها او تَشفِ مني حرارة   على كبد لم يَبقَ إلا صميمها
فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت   على نفس مهموم تجلَتْ همومها

والصبا ريح شرقية تهب على نجد من قِبَل الخليج العربي، فتكون رطبة تنعش الجو بما تحمله من رطوبة الخليج وتلطفه، قال أبو صخر الهذلي(١٧) في جهة مهبها:

إذا قلتُ حين أسلو يُهَيِّجُني   نسيمُ الصَّبا من حيثُ يطلَعُ الفجرُ

أي من قِبَلِ المشرق.

وإذا انخرقت ريح الصبا في نجد، وتجاوَزَتها إلى الغرب تكون قد فقدت نداوتها، ولم تعد تلطف الجو، ولكنها على العكس من ذلك، تثيرُ الغبار وتؤذي الناس، قال أبو ذؤيب الهذلي:

تُكَركره نجديةٌ وتحدُه   مسفسِفَةٌ فوقَ الترابِ مَعُوج(١٨)

أي تعصف به وتطيّره من مكان لآخر ريح تهب من قِبل نجد، ولذلك فقد نسبا إليها -نجدية!! وهي الصبا بعد أن تنخرق في هضبة نجد، وتعبرها في اتجاه الغرب، والمسفسفة التي لا ترتفع فوق الأرض، فهي تثير الغبار، أما المعوج فهي السريعة.

ونجد بلاد نَزِهة، وذلك بسبب جفافها، فالأوبئة والوَخَم لا تكون إلا في الأماكن الرطبة حيث يكثر الماء والكلأ، وفي أماكن الإقامة الدائمة، وليس في المنتجعات والمرادات والمرابع والدارات والهِجَر وغيرها من أماكن النزول الموسمية. وتتضح بعض هذه الصفات في أشعارهم، ومن ذلك قول نوح بن جرير الخَطَفي:

أذا العرش لاتجعلْ ببغدادَ ميتتي   ولكن بنجد، حبذا بلدا نجدُ
بلاد نأت عنها البراغيث والتقى   بها العينُ والآرام والعُفْرُ والرُّبَد(١٩)

ولم يكن نوح هو الوحيد الذي يرى ذلك، فهذا هو عبدالرحمن بن دارة يوصي بأن يدفن في نجد، ولئن فضلها نوح على بغداد العراق، فهذا هو عبدالرحمن بن حسان يفضلها على حمص/الشام، قال:

خليلي إن حانـــــت بحمْصَ منيتي　　فـلا تدفناني، وارفعاني إلى نجد(١٩)

وروى ياقوت الحموي أن بعض أهل حجر قدم إلى بغداد فاستوبأها، وذلك لكثرة الرطوبات من مياه دجلة ونتح الأشجار، فقال:

أرى الريفَ يدنو كل يــوم وليلـــة　　وأزدادُ من نجـــد وصـاحبه بُعْدا
ألا إن بغدادًا بـــــلاد بغيضـةٍ　　إليَ وإن كـــانت مـعيشتُهـا رَغْدا
بلاد تهب الريح فيـهـا مريضـــةً　　وتزداد خبثًا حين تمطر او تَنْدى(٢٠)

إن هذه الأبيات لتذكرنا بقصة ميسون بنت بحدل الكلبية، زوج معاوية بن أبي سفيان، التي لم ترقها الحياة في نعيم دمشق وقصور بني أمية، وآثرت عليها بادية الشام حيث كانت تتجول قبيلتها – بنو كلب – فقالت أبياتها المشهورة التي أولها :

لبيـت تخفـــق الأرواح فيـــه　　أحـب إلي مـــن قصـر منـيف
ولبـــس عبــاءة وتــقرَّ عينـي　　احب إلي مـن لبـس الشفوف(٢١)

...

فلما سمعها معاوية سرّحها.

فنجد، ليست تزداد خبثا حيث تمطر أو تندى ولكنها، على العكس من ذلك، تغدو عبقة بروائحها الطيبة، من شذا العَرار والأقحوان، ومن ترابها الذي ما أن يمسه المطر حتى تفوح منه الروائح الزكية، قال شاعرهم:

اكـــرر طَرْفي نحــو نجد وانني　　إليه، وإن لم يدركِ الطـرفُ، أنظر
حنيــنًا إلى أرض كـــأن ترابها　　إذا مطــرت عود ومسك وعنبـــر
بلاد كأن الأقحـــوان بروضـــه　　ونَوْرَ الأقاحــي وَشْيُ بُرْدِ مُحَبَّرُ(٢٢)

وقال آخر :

فـيـا حـبذا نجـد وطيب هوائه　　إذا هضـبتـه بالعشي هواضـبـه(٢٣)

والمعنى : إذا أصابه المطر . . . الغزير مساء. وجدير بالذكر هنا أن الأرض، أيا كانت، تفوح برائحة خاصة في أعقاب المطر أول ما يتنزل في موسمه "(Fragrance)

وهي رائحة مميزة، وغالباً ما تكون طيبة، وخصوصا في الارض العذاة وفي نزه الفلاة، وهذا ما أراده الشاعران هنا، حيث صرحا بذلك مقروناً بالمطر. ونجد من أنزه بلاد العرب لجفافها وطبيعة أرضها وتضاريسها.

وقال شاعر آخر، وفي قوله ما يوضح مدى تعلق العرب بنجد، بالرغم مما كان عليه عيشُها من شظف:

ما وَجْدُ أعــرابية قَذَفَــتْ بهـــا   صُروفُ النوى من حيث لم تَكُ ظنتِ
تمنــتْ أحــاليبَ الرعـاةِ وخيمةً   بنجد، فـلم يُقَدَّرْ لهـا ما تمنــتِ
إذا ذكــرتْ مـاءَ الـفـضاءِ وطيبَه   وبرْدَ الحصى من نحـــو نجدٍ أرنَّتِ
بأوجَدَ مـنِ وجدِ بريًا وَجـــدْتُه   غـــداةَ غدونـا غـرْبَةً واطـمأنت(٢٤)

فهذه الأعرابية قد غدت مضرب المثل في شدة الوجد والشوق إلى نجد حتى لو لم تجد فيه إلا حليب ناقة وخيمة، ولكن شوق هذا الشاعر إلى «ريّا» أشد من شوقها إلى نجد . . . إنه أعظم مما يستعظمه هو والناس.

لواعج البرق والهوى :

يقف المطالع في أدب العرب على ما كان للبرق من مكانة أثيرة عندهم، ذلك لأنه غالبًا ما يكون غِبَّ مطر جيِّد، ولما كان المطر أهم مصادر المياه في بلاد العرب، وعماد الحياة فيها، سواء لهم ولأنعامهم وزروعهم، فقد اقترن ذلك كله بموقف وجداني عميق تجاه البيئة الطبيعية، يتمثل في التعلق بها وحبها إلى درجة الاتحاد معها جزءاً فطريًا منها لا يتجزأ.

ونَجد - ومثلُها تهامةٌ بكثرة، واليمن قليلاً - أكثرُ البلدان التي أضيفت إليها البروق، يراها أبناؤها المغتربون عنها، فتهيج ذكرياتهم، وتبعث فيهم الآمال للعودة إليها على نحو ما نجده في آثارهم قديمًا وحديثًا . ومن يستمع إلى بعض الأصوات - ضرب من الغناء الشعبي منتشر في بلدان الخليج العربي - يقف على عبارة مثل «لمع البرق اليماني» تتردد فيها، ولو لم يكن اليمن قريبًا منها، ذلك أن اليمن - كنجد - غدا في الأدب العربي مبعث شوق، ومحط آمال المغتربين من أبنائه، فاكتسبت الكلمتان (نجد واليمن - وتهامة) دلالات هامشية تقع على معنى

الهوى والعشق والحنين ودواعيها ومايثيرها ، تمامًا مثلما قال شاعرهم :

يذكرني لمعُ البـــروق منــــــازلي   بنجـد وأهليها ، فأضنى بهــا وجْدا
وهذي النوى حكمٌ من اللـــــه نازلٌ   وما كنـت ممنْ يستطيعُ لـه رَدًا (٢٥)

وقال أعرابي في الموضع نفسه :

رأيتُ بروقًا داعيات إلى الهـــوى   فبشرتُ نفســـي أن نجـــدًا أشيمها
إذا ذكر الأوطـــان عـندي ذكرتـــه   وبشرتُ نفـسي أن نـجدًا أقيمها(٢٦)

فالبرق يذكّر الشاعر بمنازله وأهله في نجد، وهي، في البيتين الأخيرين، تدعوه إلى الهوى، وتبشره بأنه أصبح قريبًا من نجد.

وجاء في معجم البلدان أن عشرة من الخوارج أُدخلوا على عبدالملك بن مروان، فأراد أن يضرب رقابهم، وكان يوم غيم ومطر وبرق ورعد، فضربت رقاب تسعة منهم، وقدم العاشر ليضرب عنقه، فبرقت برقة، فأنشأ يقول:

تألَقَ البرقُ نجـديا فقلـــــت له   يا أيها البـــرق إني عنك مشغــولُ
بِذِلَّةِ العقـــــلِ حيـرانٌ بمعتكف   في كفه كحَباب المـــاء مسلـولُ(٢٧)

يقصد أن البرق كان جديرًا بإثارة كوامنه وتحريك وجدانه وأحاسيسه، ولكن الموقف العصيب الذي يقفه جعله مشغولاً عنه، وحال دون استجابة عواطفه لأثره.

فقال له عبدالملك: ما أحسبك إلا وقد حننت إلى وطنك وأهلك، وقد كنت عاشقًا؟!! قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: لو سبق شعرك قتل أصحابك لوهبناهم لك، خلوا سبيله، فخلوه.

وجدير بالذكر أن البرق يتشكل بكثرة فوق نجد وتهامة وَصُدُرِ عسير، لارتفاعها أولاً، ولأن تهامة وصُدُر عسير أول ما يعترض السحب القادمة من فوق البحر الأحمر، ونظرًا لكثرة ما يتهيأ للسحب التي تصل إلى نجد من أسباب التَّأيّن والشحن الكهربي نتيجة للتقلبات المناخية والرياح والعواصف الرملية التي تكتنف المنطقة من حين لآخر.

ومما يؤكد الدلالة الجديدة التي بدأت تكتسبها كلمة «نجد» على المعنى، وإن لم

يكونوا من أهل نجد، فها هو سعيد بن حُمَيد المنبجي المُذْحَجي المعروف بالدَّوْقَلَة يخاطب محبوبته مستخدماً الإتهام والإنجاد المشتقين من تهامة ونجد لمعنيين مرتبطين بذلك النوع من المشاعر الدافئة، فقال:

إن تتهمي فتهامة وطني   أو تنجدي إنَّ الهوى نجد(٢٨)

أي إنني أهوى من الأماكن حيث تكونين، ومانراه اختار نجداً وتهامة إلا لارتباطهما في الذهن الشعبي العربي بالهوى والعشق حتى لقد غدتا علَمين عليهما، تماماً كما هي الحال بالنسبة للاسم «ليلى» من قولهم «كلٌّ يغني على ليلاه» و«سعاد» في المقدمات الطللية، حيث شاعت عبارة «بانت سعاد» في كثير من قصائدهم، فقد روي أن الأصمعي كان يحفظ ستة عشر ألف قصيدة ومُقَطَّعة تبدأ بقول الشاعر: بانت سعاد!!!

وقد نشير هنا إلى أن كل ما وقفنا عليه من الآثار والأشعار التي تشرح العلاقات السابقة بين نجد ودلالتها على الهوى والعشق هو إسلامي، وتوجيه ذلك أن كثيراً من أهلها التحقوا بالجيش الإسلامي في العراق والشام وغيرها، وأقاموا في الأمصار المفتوحة، فهيج البعد مشاعرهم، وأنطقهم من الشعر بما بثوا فيه أحاسيسهم تجاهها، فكان على نحو ما تقدم.

ومما يوضح انتشار الدلالة السابقة بين غير النجديين وشيوع استخدام اللفظ لهذا الغرض ما ينسب لعبد الله بن عجلان النَّهْدي(٢٩) وهو حجازي، من قوله:

بكى، فرنَت له أجبال صُبْح   وأسعدت الجبالَ به مرُوتُ
حجازيٌ الهوى علَقٌ بنجْد   جَوِيٌ لايعيش ولا يموت
كأن فؤادَه كفَا غريق   تنازعه بشط البحر حُوت(٣٠)

والشاعر هاهنا يستبكي لبكائه الجبال، فلم يجدها كافية، حتى شاركها في ذلك الصحاري والفلوات، وهو حجازي الحب، ولكن محبوبته «نجد» أي فتاة بنجد وقد أضناه حبها حتى كاد يقتله.

وليس الشعراء وحدهم هم الذين يحنون إلى نجد، بل إن الإبل هي الأخرى تحت

إليها، وجدير بالذكر هنا أن الوطن وحبه والحنين إليه ألصق بالإبل، وقد نقلت هذه الألفاظ والعواطف من عالم الجمل إلى عالم الإنسان. فالإبل أنزع من الإنسان للوطن وقد فطرت على ذلك مذ كانت.

قال رجل من تميم :

حنَت قلوصي من عَدانَ إلى نجْدِ   ولم يِنسها أوطانَها قِدَمُ العهد(٣١)

بل إن الحنين الذي هو الشوق إلى الوطن والأهل ونحوهما، هو في الأصل صوت يصدر عن الناقة إذا طلبت حوارها لترضعه، ولما كان ذلك مقرونًا - في العادة - بعاطفة جياشة، فقذ استساغ العربي أن ينقل الكلمة لدائرة الإنسان بمعناها الشائع اليوم.

ومن المقارنات الطريفة بين الإنسان والإبل ما أنشده المُبَرِّد لبعض الأعراب في الحنين، حيث قال في ناقته:

حنَت وما عَقِلَت فكيف إذا بكى   شوقًا يُلامُ على البُكامَن يعقل
ذكرتْ قرى نجد، فأطلقه الهوى   وقرى العراقِ وليلهُنَّ الأطولُ(٣٢)

وهذه الناقة لم تحنَ جريًا على عادة الإبل، بمناسبة وبغير مناسبة، بل لأنها تذكّرت نجدًا، فذكّره حنينُها بما أطلق وجده وحرّك أشجانه، وإنه لأحقّ منها بذلك، فهو يعقل، وهي لاتعقل، والشوق أخص بالعاقل من سواه.

ومن الأشعار التي تجردت فيها كلمة نجد علمًا على موطن الهوى والمحبة قول سعيد بن عبدالرحمن بن حسان بن ثابت، وهو حجازي شامي، يتغزل :

سقى الغيثُ ذلكَ الغورَ ما سَكَنَتْ به   ونجدًا إذا صارت نواها إلى نجد(٣٣)

ومانراه استخدم الكلمة اضطرارًا لإقامة الوزن وطلبًا للروي، بل انسجامًا مع ما درجت عليه العرب، وما شاع عندهم من إضفاء معنى المحبة والعشق والهوى لتلك الكلمة، لعلاقة بالبيئة التي تقع عليها، وبما فطر عليه إنسانها من تعلق بها لأسباب مختلفة.

وقريب من البيت السابق قول جرير وهو بالكوفة :

أحبُّ ثرى نجـــد ، وبالغور حاجـةٌ   فغار الهوى ياعبدَ قيسٍ وأنجدا(٣٤)

يعني أن مواضعه اختلفت ، فحبه لنجد فطري قديم ، يسري في عروقه منذ نشأته ، وحبه لتهامة (الغور) عارض حديث ، لأن الحبيب اتخذ منها دار إقامة.

ومما يؤكد عمق العلاقة الدلالية بين نجد كلمة وأرضًا ، وبين المعاني العاطفية التي سبق ذكرها ما حكاه الهيثم بن عدي عن أبي مسكين من خبر قيس بن الملّوح ، قال: خرج منا فتى ، حتى إذا كان ببئر ميمون ، إذا جماعة على جبل من تلك الجبال ، وإذا بينهم فتى قد تعلقوا بـه ، مديد القامـة ، طوال أبيض ، جعد الشعر ، أعين ، أحسن من رأيت من الرجال ، وإذا هو مصفرّ مهزول شاحب اللون ، قال: فسألت عنه ، فقالوا: هذا قـيس الذي يقـال له المجنون ، خـرج به أبـوه الملوّح حين ابتُلي بمـا به إلى الحَرَم مستجيرًا بالبيت لعل الله أن يفرج عنه ، فقلت: مايَصنع هاهنا ، ومالكم تمسكونه ، قال: لما يصنع بنفسه ، فإنه يصنع بها صنيعًا يرحمـه منه عدوه؛ ويقول: أخرجـوني أتنسم صبا نجـد ، فنخرجه إلى هاهنا ، فيستقبل بلاد نجد عسى أن تـهب له الصبا ، ونكره أن نخلي سبيله فيرمي بنفسه من الجبل ، فلو شئت دنوت منه فأعلمته أنك قدمت من نجد ، فيسألك عنها وعن بلاده فتخبره!! فقلت: أفعل ، فقالوا: يا أبا المهدي! هذا رجل قدم من نجد ، فتنفس تنفّسـا ظننت أن كبـده قد انصدعت ، ثم جـعل يسألني عن وادٍ وادٍ ، وموضع موضع ، وأنا أصف ذلك له ، وهو يبكي أحرَّ بكاء وأوجعه للقلب ، ثم قال:

ألا ليت شعري عن عُوارضَتَيْ قَنَـا   لطول الليالي هــل تغيّرتا بعـــدي؟
وعن علْوَيات الرياح إذاجـــــرت   بريح الخُزامى هل تهــب على نجد
وعن أقحوان الرمل ما هــو فاعل   إذا هو أســـري ليلة بثرى جـعْد(٣٥)

سقى الله نجدًا :

ونـظـرًا لما تقدم بيـانه من المكانة الأثيرة التي حظيت بهـا نجد عند الشعراء وعـامة الناس ، فقد آثروها بطلب السقيا لها ، وذلك شأن العرب جميعاً مع بلادهم وأوطانهم ، لاسيمـا إذا شطت بهم يد الـنوى ، غيـر أن نجدًا أوفر من غيـرها حظًا لما استطار من

شهرتها، وإنها غدت علَما على المحبة والعشق. قال عبيد الله بن الدّمينة في داليته المشهورة(٣٦):

سقى الله نجدًا والمقيمَ بأرضِها　　　سحابًا ثقالاً خالياتٍ من الرعد

وذلك أغزر لمطره وأعم، وأنفع للأرض ومن عليها. وقالت القُرَيْطيّة وقد ارتحل أهلها عن نجد:

سقى الله نجدا من ربيع وصيَف　　　وماذا نُرَجّي من ربيع سقى نجدا
على أنه قد كان للعيش مـــرة　　　وللبيض والفتيان منزلةٌ حمْدا(٣٧)

إن في هذين البيتين ما يوضح لواعج الشوق الذي يستكنّ في فؤاد هذه المرأة لنجد، فهي بعيدة قد ارتحلت عنه، ومع ذلك فهي تدعو له بالسقيا، لأنه يكفي إنه كان يومًا ملعبًا للشباب والحِسان.

✿ ✿ ✿

إن في تعقب التطورات التي طرأت على تاريخ هذه الكلمة (نجد) ما يوضح عمق العلاقة بين الإنسان والبيئة بوجه عام، والخصوصية التي امتاز بها «نجد» عن غيره من المواضع، سواء في هوائه ونسائمه، وفي تنزهه عن الأوبئة والرطوبات، ودروج اسمه على ألسن الشعراء يلهجون بذكره والتغني به، بالرغم من شظف عيشه، حتى غدا اسمه علمًا على العشق والهوى ... كان ... وما يزال، وسيظل مادامت الصبا تأتيه رخاء، ومادام شيحه وأقحوانه وعَراره ... بإذن الله.

الهوامش والمراجع

١ – سورة البلد – الآية ١٠.

٢ – الطرماح بن حكيم الطائي – ديوانه، تحقيق صلاح الدين الهادي – ص١٩٢.

٣ – الأصمعي، عبدالملك بن قريب – الأصمعيات، ص١٩٢.

٤ – ابن ماجد، الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، تحقيق عزة حسن وزميله، منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق، عام ١٩٧١.

٥ – ابن بنين، سليمان، اتفاق المباني وافتراق المعاني، تحقيق يحيى عبدالرؤوف جبر، دار عمار، عمان، ١٩٨٥، ص٢٠٢.

٦ – الأصمعي، ص١٠٨.

٧ – سورة الملك – الآية ٣٠.

٨ – بروكلمان – كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة منير بعلبكي، بيروت، ١٠/١.

٩ – الأحوص – مستدرك شعر الأحوص، مجلة المورد، ص٩١.

١٠– العرجي، ديوانه، ص١١.

١١– الضبي، المفضل الضبي، المفضليات، ص٣٤٣.

١٢– الحموي، ياقوت – معجم البلدان، بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٧٣، جـ٤، ص٧١.

١٣– ابن جنيدل، سعد بن عبدالله، المعجم الجغرافي لعالية نجد، منشورات دار اليمامة بالرياض، مطبعة نهضة مصر، ١٩٧٨، ١١/١.

١٤– ابن بنين، ص٢٠٢.

١٥– ابن الدمينة، ديوانه، ص٢٩.

١٦– ١٨١/٢.

١٧– المسعودي – التنبيه والإشراف، ص١٨.

١٨– السكري – شرح أشعار الهذليين، القاهرة، ص١٣١.

١٩– ياقوت – معجم البلدان، ٦٤/٥.

٢٠– المرجع نفسه، ٢٦٥/٥.

٢١– شواهد سيبويه، ٤٣٦/١.

٢٢– ياقوت ٢٦٢/٥، ٢٦٣.

٢٣– المرجع نفسه ٢٦٣/٥.

٢٤- الزجاجي - أبو القاسم عبدالرحمن بن إسحق - الأمالي، تحقيق عبدالسلام هارون، الطبعة الثانية، دار الجيل، بيروت ١٩٨٧، ص٢٤، ٢٥.

٢٥- أسامة بن منقذ - المنازل والديار، منشورات المكتب الإسلامي ٤٧/١، ط١، بيروت ١٩٨٠.

٢٦- ياقوت ٢٦٣/٥.

٢٧- المرجع نفسه ٢٦٤/٥.

٢٨- ابن خير - الفهرست، طبعة سرقسطة، ص٤٠١. ومجلة الزهراء، المجلد الثالث، ص٢٢٤، ٣٦٢.

٢٩- نسبة إلى هند النزارية، وكان أحبها حبًا شديدًا فمات به.

٣٠- ابن دريد - الأمالي، تحقيق السيد مصطفى السنوسي، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٨٤، ص٩٤، وانظر ديوان الهذليين ١٣/٣ والأغاني (ط دار الكتب) ٢٢/٢٠، وأمالي القالي ٢١٩/٢، والأخبار الموفقيات للزبير بن بكار، تحقيق سامي العاني، ص٥١٣، ٥١٤.

٣١- أسامة بن منقذ ١٣/٢.

٣٢- الزجاجي ص٢٠١.

٣٣- أبو الفرج الأصفهاني - الأغاني (ط دار الثقافة)، ١٩٨٣م، ٢٦٩/٨.

٣٤- المرجع نفسه ٦٠/٨.

٣٥- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله مسلم - معجم الشعراء، منشورات دار الثقافة، بيروت د.ت ٤٧٢/٢. والأغاني (ط دار الكتب) ٢١/٢، وديوان قيس بن الملوح ص١١٣.

٣٦- ابن الدمينة - ديوانه ص٢٩.

٣٧- أسامة بن منقذ ٩١/١.